الأسس المعرفية للفهم بين اللغة والذهن

د . أحمد خالص
كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض بمراكش
المغرب

مدخل عام.

عندما ننظر، اليوم، إلى أي نظرية لغوية أو أدبية في إطار النتائج التي حققتها مؤخرا العلوم المعرفية المتداخلة التخصصات، أصبحنا نطلب منها أن تكون لها كفاية معرفية تفسيرية، بمعنى تتعدى وصف البنيات التركيبية والدلالية والخطابية إلى الأسس المعرفية التي تنتج هذه البنيات اللغوية؛ أي البعد الذهني النفسي والمعرفي المسؤول عن إنتاج التمثيلات الذهنية واسترجاعها ومعالجتها والعلاقات بينها، بما في ذلك أساسها العصبي.

بمعنى كيف ينتج الذهن هذه الخطابات التي نحيا بها والتي تحدد سلوكنا التواصلي في الحياة اليومية؟ وكيف يفهمها ويعالجها؟

إن الاهتمام بهذا البعد المفسر للظواهر اللغوية يتوافق مع المشرع الأكبر للإبدال المعرفي التي يهتم بدراسة اللغة بطريقة تتوافق مع ما عرف عن الذهن في اختصاصات مختلفة[1]، والبحث في العلاقة بين التجربة المتجسدة والنسق التصوري واللغة؛ ومنها دراسة اللغة بوصفها انعكاس وكشف لعمل الذهن/ الدماغ.

يحاول هذا المقال في إطار النظرية المعرفية الإجابة عن أسئلة من أبرزها، إلى جانب السؤال الأنطولوجي حول ماهية المعنى (أو التصورات) التي تبنى عليها التعابير اللغوية، والسؤال الدلالي حول علاقة العبارة بمعناها، والسؤال المعرفي المتعلق بكيفية الفهم والتواصل بين البشر في خطاباتهم بمختلف علاماتها السيميائية.

ويتناول البحث هذه الأسئلة وبعض عناصر الإجابة عنها من خلال ثلاثة محاور رئيسة:

- تحديد بنية التصورات وأنواعها باعتبارها كيانات تمثيلية ذهنية؛ وتحديد دورها في بناء التعابير اللغوية، داخل بنية الذهن المعرفية العامة؛

- المبادئ والمنطلقات التي قامت عليها النظرية المعرفية في دراسة المعنى وطريقته تمثله، كالذهن المتجسد، والفكر التخيلي الذي من أبرز أدواته المجاز والاستعارة والكناية والسرد وباقي الخطابات غير الحرفية، والعلاقة بين الذهن (التصور) واللغة (البنية) والواقع (التجربة)؛

الاتجاه التداولي المعرفي الذي يبحث في آليات اشتغال الذهن البشري إنتاجا وفهما وإدراكا، معتمدين المفاهيم الإجرائية التي وضعتها التداولية المعرفية في الانتقال من ما هو لغوي إلى ما هو ذهني، كمفهوم الاستدلال، والملاءمة، وأنواع الكفايات المعرفية، ومستويات الذاكرة الخطابية التي يتطلبها تأويل الخطاب. وخاصة، الإشكالات النظرية المرتبطة بالخطاب السردي، حول هل التخييل قابل للذوبان في المعرفة؟ وبصيغة أكبر، هل السرد نسق ذهني أم نسق لغوي؟

نعتمد الإجابة عن سؤالي علاقة المعنى اللغوي بالفهم والتواصل في إطار النتائج التي تحققها العلوم المعرفية، بخلاف تصورات مرحلة ما قبل المعرفية التي تشمل كل نظريات المعرفة السابقة منذ أرسطو إلى اليوم، والتي تستند على الفلسفة الموضوعية والدلالة

المشروط بالصدق وفلسفة اللغة التحليلية. معتمدين في تحليلنا نموذج الدلالة المعرفية مع لايكوف وجونسون ورونالد لانكاكر وجيل فوكنيه من بين أخرين في منظورها الاستعاري التصوري، وكذا نموذج النظرية التداولية المعرفية مع كل من دان سبربر وويلسن و آن ريبول وغيرهما.

1. ماهية التصورات/ التمثلات الذهنية.

فما هي التصورات اليوم؟ وما طبيعتها في العلم المعرفي الراهن؟ أو بعبارة أخرى، ما هي الإشكالات التي تطرحها التصورات في العلوم المعرفية؟

تعد التصورات تمثيلات ذهنية، والتمثيلات الذهنية هي علاقتنا بالعالم في أي مستوى من المستويات، سواء تعلق الأمر **بالتصورات الحسية الادراكية** الفطرية وهي أداتنا المباشرة بالعالم، أو بما يسمى **بالتصورات النظرية الصريحة** Explisit وهي ما نحمله تدريجيا من أفكار ومفاهيم حول أنفسنا، وحول العالم والأخرين وتنتج عن تطور التمثيلات الحسية الإدراكية، وتسمى بالتصورات العامية Folk concept وتتعلق بعموم الناس. وهذان النوعان من التمثيلات الذهنية سادا طيلة الفكر الفلسفي وتاريخ علم النفس. لكن بدءا من ثمانينيات القرن الماضي ونظرا للثورة المعرفية التي جاءت كرد فعل على الاتجاه السلوكي الذي كان يعتبر أن دراسة ما هو في الأذهان أو الحياة النفسية والتمثيلات الذهنية عبارة عن ممارسة لا علمية[2]؛ لأنها غير قابلة للملاحظة والتحقق، وتكتفي بدلا من ذلك بالاستدلال على الخصائص العامة للذهن البشري انطلاقا من الملاحظة الخارجية للظواهر اللغوية[3]، إلى أن أخرجت الثورة العلمية هذا المجال من ظلمات الصندوق التجريبي السلوكي إلى نور البحث العلمي. وموازاة مع التطورات التي عرفتها العلوم المعرفية وتطور الوسائل التقنية الحديثة التي ترتبط بالتصوير الدماغي الذي أضاء لنا الكثير من المعطيات التي كان يتم التعامل معها من منظور ملاحظي تأملي عام، أي الإمكانيات التي لم تكن متاحة من قبل والتي ترتبط بتصوير حركة الخلايا العصبية للدماغ البشري أثناء اشتغاله. وقد مكنت هذه التطورات في إطار العلوم المعرفية المتعاونة من الوقوف على نوع ثالث من التصورات هي ما تسمى **بالتصورات القاعدية النواة**، وهي تصورات فطرية مثلها مثل التصورات الحسية الادراكية.

عندما ننظر في الاتجاهات العامة للتصورات، يمكن أن نعين، باختصار كبير، اتجاهيين عامين: اتجاه أول، يعتبر التصورات تمثيلات ذهنية مجردة عن المعلومات المرتبطة بالأسس الإدراكية الحسية التي تنتجها. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الذهن جوهر منفصل ومجرد عن الجسد، فهناك التصور/ المعرفة من جانب، وهناك الإدراك/ المستوى الحسي الحركي من جانب آخر. وهذا الاتجاه تمثله الفلسفة الموضوعية والمقاربات الدلالية الشكلية والبلاغة التقليدية، ويواجه إشكالات متعددة أبرزها: كيف يحلل الذهن اللغة والتفكير؟ مادامت عملية التفكير تحتاج إلى محتوى، والمحتوى هو كل المعلومات والمعطيات الإدراكية والحسية والحركية.

التصور الثاني خلافا للأول، لا يعتبر أن التصورات منفصلة عما ينتجها، بل التصورات والإدراك والمستوى الحسي الحركي ظاهرة واحدة. فالتصورات متجذرة في الجسد وفي المستويات الحسية، وبالتالي، لا توجد التصورات في جانب والادراك في جانب آخر. وهذا الاتجاه يمثل صيغته الأولى كل من لايكوف ومارك جونسون، سواء في كتابه "الاستعارات التي نحيا بها" أو في كتابه "الفلسفة في الجسد". فالتصورات سواء أكانت حسية أم مجردة متجذرة في الإدراك البشري[4]. وتعتبر هذه التصورات المجردة إسقاطات من مصدر إلى هدف، أي من بنيات مادية لها طابع حسي إدراكي إلى تصورات استعارية مجردة.

ولهذا التصور اليوم، قيمة كبرى في إطار العلوم المعرفية المتعددة الاختصاصات منذ ثمانينيات القرن الماضي، وما يزال له حضور متزايد، وتحديدا في اكتشافات علم الأعصاب، وعلم النفس المعرفي، التي قدمت استدلالات علمية على أن هذا التصورات فعلا متجذرة في الإدراك وليست مجردة أو منفصلة عنه.

الدليل الأول، يرتبط بأسس معرفية ترتبط بقدرات تمثيلية لدى البشر لا توجد لدى غيره، فنحن نستطيع بناء مقاصد مشتركة رغم البناءات الفردية للتصورات الذهنية، ونستطيع التعرف على مقاصدها التواصلية؛ لأننا مزودون بذلك عصبيا وبيولوجيا[5]. إننا نولد ونحن نمتلك عضوا ذهنيا أو قدرة ذهنية تسمى **نظرية الذهن** Theary of mind، وهذه القدرة أو الملكة وثيقة الصلة بالمعرفة النواة، وهي التي تمكننا من إسناد حالات ذهنية إلى الأخرين، وتأويل مقاصدهم وأفكارهم تأويلا جيدا، وهي آلية أساسية لاشتغال الذهن البشري[6]. وقد تطورت الدراسات التي اهتمت بهذه الملكة، خاصة، بعد اكتشاف المرض الذي نسميه بالتوحد الناتج عن خلل في نظرية الذهن. فالمتوحد لا يستطيع فهم حالاته الذهنية، ولا يفهم الحالات الذهنية للأخرين، أي أنه عاجز عن بناء تصورات ومقاصد مشتركة.

الدليل الثاني يرتبط بالأساس العصبي الدماغي لقدرتنا على بناء تصورات مشتركة، وهو اكتشاف عصبي صرف تم في جامعة بارما في بداية التسعينيات، وسيظهر المقال الذي سيصف هذا الاكتشاف العصبي سنة 1992. لعالم فيزيولوجي إيطالي "جياكومو ريزولاتي[7] G, Rizzolatti ". هذا الاكتشاف يتعلق بوجود مجموعة من الخلايا العصبية المسؤولة عن النزوع الطبيعي والفطري نحو التواصل ونحو بناء المقاصد المشتركة. هو ما سمي بيولوجيا بـ "**الخلايا العصبية المرآة**" «Mirror neurons»، وطبيعة هذه الخلايا هو أن لها خاصية انعكاسية فهي المتحكمة في اشتغالنا عندما نمارس سلوكا معينا وتشتغل أيضا، عندما نرى شخصا آخر يقوم بالسلوك نفسه. ومن خصائص هذه الخلايا العصبية كذلك، أنها تنشط بكثافة في الدماغ عندما يتعلق الأمر بتصورات ذهنية يمكن أن نستنتج أو نتوقع مقصديتها، فهي تخصص القصد من التصورات وهدفها[8]. وقد شكل اكتشاف هذه الخلايا العصبية ثورة كبرى في العلوم المعرفية وخاصة في مجال علم النفس المعرفي، وأصبحت أساسا عصبيا اليوم لدراسة المحاكاة اللغوية[9] عند الإنسان وقدرته على التواصل والتعاون وبناء القصد المشترك "لقد ترك اكتشاف – أو فرضية اكتشاف –خلايا مرآة أثرا عميقا في العلوم الإنسانية"[10]

إن هذين الاستدلالين العلميين يجيبان في الوقت نفسه، عن سؤال يهم علاقة التصورات الذهنية بالتواصل: كيف يتم التواصل اللغوي؟ ونحن نعرف أن بناء التصورات فردي، ذلك أن للناس أذهان منفصلة، فمن أين تأتي هذا القدرة الذهنية على محاولة فهم تصورات الأخرين المبنية خطابيا واستعاريا، والقدرة على الالتقاء في بناءات تصورية مشتركة؟

إننا نستطيع بناء مقاصد مشتركة رغم البناءات الفردية للتصورات الذهنية، ونستطيع تأويل مقصديتها لأننا نمتلك معرفيا نظرية الذهن. وهي الملكة التي نستطيع بها التمييز بين الحالات الذهنية. ولأننا مهيؤون بيولوجيا بالخلايا العصبية المرآة. وهذان الأساسان؛ المعرفي التمثيلي(نظرية الذهن) والعصبي الأحيائي (الخلايا المرآة) هما ما يميزان قدرة الإنسان على بناء القصد المشترك رغم الطابع الفردي للتصورات، وهما ما يطلق عليه الباحثان دان سبيربر وويلسن، بصيغة أخرى،" نظرية الملاءمة" في كل أبحاثهما ومؤلفاتهما المشتركة في إطار التداولية المعرفية التي خصصاها لدراسة الاستعارة والكناية والسخرية وخطابات الحياة اليومية. ووفق منظورهما المعرفي، فالإدراك البشري مهيّأ ومكيف بيولوجيا وعصبيا لملاءمة الأقوال والتعرف على مقصديتها الضمنية "[11]، وهذا ما سنقف عنده بتفصيل واسع في المبحث الثاني من هذا المقال.

ونأتي إلى طرح السؤال المعرفي المتعلق بالكفاية التفسيرية. لماذا نجد أن هناك مجموعة من التصورات تحتل مساحة أكبر من غيرها في العلاقات المجازية للغات؟ ولماذا نجدها بهذه الأهمية في اللغات الطبيعية؟ ولماذا تشكل هذه التصورات أساس كل التصورات الأخرى المتعلقة بعناوين كبرى، كالفضاء، والمعرفة الاجتماعية، والشخص، والجنس، والعدد.

نلاحظ أن مجتمعات كل اللغات تسيطر فيها مجموعة من السمات الدلالية والتصورات دون غيرها، ومنها الموضوعات الفيزيائية، والفضاءات والأمكنة، وهذا ما يفسر كثرة الاستعارات الفضائية، فنحن نتحدث عن الحالات النفسية والعلاقات الاجتماعية من خلال الفضاء " انتقل الإرث إلى فلان"، ونتحدث عن الزمان من خلال الحركة، ونتحدث عن الحالات باعتبارها أوعية، والحب باعتباره رحلة. والاستعارات الفيزيائية الإنسان نبات، والإنسان حيوان.

تبنى التصورات الاستعارية على أساس التصورات الأولية النووية التي تشكل قاعدة لتوالد المعاني وتوسعها إلى ما لا نهاية من العلاقات الدلالية، وتشكل العلاقات المجازية والاستعارية جوهره. وهذه العلاقات تتأسس جذورها على هذه الأنساق النووية المبنية على تمثيل الموضوعات، والأمكنة، والشركاء الاجتماعيين، وتمثيل مقاصد المنفذين وأعمالهم، وسنكتفي بالإشارة إلى عناوين هذه الأنساق التي أصبحت تسمى بالأنساق **المعرفية النواة**[12] « Core cognition »، التي وضعها كل من سبيلك وكينزل Spelke and Kinzle[13]، والتي يمتلكها الإنسان منذ الولادة، وقبل مرحلة إنتاج اللغة.

_ نسق لتمثيل الموضوعات objects: فنحن نولد بتصورات فطرية تمكننا من تعرف الموضوعات في العالم الخارجي وأشكال الأشياء قبل معرفة الحجم واللون وهذه السمات تأتي في مرحلة متأخرة مع التصورات الحسية الإدراكية.

– نسق لتمثيل الفضاء والأمكنة space: الرضيع له قدرة على إدراك هندسة المحيط الفضائي، والزوايا والمسافات والعلاقات بينها.

– نسق تعرف الشركاء الاجتماعيين social partners: وهذا مهم بالنسبة للمعرفة الاجتماعية، فالرضيع يميز بين الشخص وغير الشخص، بمعنى بين الوجه البشري والوجه غير البشري، وله تفضيل أولا للوجه البشري مقارنة مع الوجه غير البشري، وله تفضيل للوجه المرتبط بأقربائه والمجموعة التي ينتمي إليها مقارنة بالوجه الذي لا ينتمي لمجموعته. وله كذلك، تفضيل سمعي للغة نشأته مقارنة بأصوات لغات غير النشأة[14]

– هناك نسق رابع لتمييز الحركة الهادفة والمقصودة actions: فالرضيع يستخدم أساسا البصر والانتباه الى اتجاه النظر والى نظر الاخرين ووجهة الرأس والتفاتاته لمحاولة فهم مقاصد الآخرين وتأويلها.

– تم أخيرا هناك نسق لتمثيل العدد number: ويتميز في هذه المرحلة بكونه غير دقيق ولا يتجاوز الواحد إلى الاثنين.[15]

عندما ننظر في التصورات التي تبنى عليها التعابير الاستعارية، سنجد أن مرجعها الذي تستمد منه هذه التصورات، يتكون إما من معطيات تعود إلى التمثيلات الحسية الإدراكية (التصورات المجسدة) أو من معطيات تصورية بنيت على المعرفة النواة. والتصورات المجسدة التي تغلب فيها السمات الحسية الادراكية نحتاج فيها إلى معلومات عن الأنساق الحسية المتصلة بها. وكذلك بالنسبة للتصورات الاستعارية المجردة، عندما تنتج أنساقنا التصورية تدريجيا أنساقا مجردة، نفهمها بناء على النسق التصوري المتعلق بمجال التصورات، وقد قدمت عالمة النفس المعرفية التطورية جون ماندلر Jean Mandler (1992، 1996، 2004) عددا من المقترحات حول كيفية تشكل خطاطات الصورة من التجربة الحسية، بدءا من سن مبكرة –وتحديدا قبل شهرين– عند الأطفال الرضع الذين يبدون اهتماما بالأشياء والموضوعات ويستكشفون بيئتهم المكانية. وتشير ماندلر إلى أن الأطفال وانطلاقا من أنساقهم التصورية لتجربة الفضاء يمكنهم أن يجتازوا أنواعا متشابهة من التجارب أكثر غنى ومغزى في حياتنا اليومية، وعلى سبيل المثال خطاطة صورة الحاوية والوعاء الذي يتم فيه فهم كيان واحد من خلال كيان آخر يحتوي عليه. وهذا ما يفسر علاقة المحتوى بالوعاء الاستعارية في التعابير التالية: (شربت كأسا) و (نتساقى كأس الصداقة)، فنعامل الكأس باعتباره شيئا ونعامله باعتبار محتواه، وهي تصورات استعارية متأصلة في اللغات.

تصف ماندلر عملية تشكيل خطاطات الصورة من حيث إعادة وصف التجربة المكانية من خلال عملية تسمى تحليل المعنى الإدراكي، كما تقول:" إن أسس القدرة التصورية هي خطاطة الصورة التي يتم فيها رسم البنية الفضائية في البنية التصورية"[16] وترى أيضا أن " التجارب الأساسية المتكررة مع العالم تشكل الأساس الذي تقوم عليه البنية الدلالية للطفل، والتي أنشئت بالفعل قبل أن يبدأ الطفل في إنتاج اللغة"[17]. وبعبارة أخرى، إنها تشكل الأساس لكثير من تصوراتنا الاستعارية. وبهذه الطريقة تخدم التجربة المجسدنة في تشكيل مفاهيم وتصورات أكثر تجريدا وتعقيدا.

2. التصورات سابقة للغة.

كان التفكير الفلسفي عبر مساره التاريخي، يميل إلى نوع من الربط الحدسي بين التصورات (الفكر) واللغة. وكانت النظريات اللغوية والبلاغية المنبثقة عنها، ترى أنه لا فكر بدون لغة، وحتى يكون هناك فكر يجب أن تكون هناك لغة. ونتيجة لهذه التصورات اعتدنا أننا لا نفكر في المعنى إلا من خلال اللغة، ونتعامل حدسا مع أن المعنى موجود في اللغة، ونعرف المعنى من خلال معاني الألفاظ. لكن التطورات المعرفية في السنوات الأخيرة مكنت من الوقوف على أن الفكر موجود بدون لغة، لذلك يجب إزاحة ستار اللغة –مؤقتا– عن الفكر وعن التصورات حتى نتمكن من دراسة بنية التصورات؛ لأن اللغة تحجب التصورات. فنحن نفكر بدون لغة، واللغة تعبر عن بعض الفكر ولا تعكس الفكر، والجزء الأعظم من الفكر يبقى في الأذهان، فنتخذ من كلام الأخرين مدخلا لاستكمال استنتاجاتنا الذهنية، بحسب معارفنا المسبقة وتجاربنا المشتركة، وبناء على استدلالات ذهنية تكون الكلمات فيها مجرد مداخل. ولهذا يجب إزاحة اللغة عن الفكر لندرس بنية الفكر، ونعرف من أين تأتي التصورات في أصلها؛ هذه التصورات التي تشكل مادة العلاقات الاستعارية، وسنحاول في المبحث التالي بيان هذا التصور بتفصيل في إطار الإبدال المعرفي لدراسة المعنى.

لقد مكنت، كذلك، تراكمات النتائج المتحققة مؤخرا، في إطار العلوم المعرفية من إثبات أن التصورات سابقة للغة، وأن الفكر موجود بدون لغة، وبالتالي نفي التصورين الفلسفي والبلاغي التقليديين الذين تأسسا على أن الاستعارة مرتبطة باللغة وليست بالفكر، وأنها ترد في مستوى اللفظ وليس في مستوى التصور، ونتيجة لذلك فالاستعارة انحراف أو انزياح لغوي، وعدول عن المعيار، أو إنتاج لمدلولات جديدة انطلاقا من دوال قديمة. وفي الوقت ذاته، تعزيز لنظرية الاستعارة المعرفية لدى لايكوف وجونسون، التي ترتبط بالفكر وليست باللغة، وبالنسق التصوري الاستعاري الذي يحكم هذا الفكر الجسدي المتفاعل مع محيطه، وهي كذلك، آلية معرفية ندرك بها ذاتنا ونفهم بها العالم ونؤوله. وكما يبرهن لايكوف "إن جزءا كبيرا من النسق التصوري البشري استعاري في طبيعته. والاستعارة آلية من اليات اشتغال البناء الذهني عند البشر"[18] واستطاعت النظرية المعرفية، بفضل أنواع أدوات التصوير الدماغي المتقدمة، أن تثبت تجريبيا هذا الفكر غير اللغوي انطلاقا من مصدرين يتعلقان بدراسة البنيات التصورية للرضيع قبل ولوج مرحلة إنتاج اللغة[19] والبنيات التصورية للرئيسات وهي كائنات غير لغوية.

المصدر الأول: ما توصل إليه علم النفس المعرفي المقارن من نتائج حول دراسة البنيات التصورية للرئيسات من الحيوان، وأثبت هذه النتائج أن للحيوانات عموما والرئيسات على وجه الخصوص، بنيات تصورية غنية ومركبة، وهي تصورات مجردة أو في مستوى عال من التجريد لا تدرك بالحواس مباشرة، كتصورات الثأر والعقاب وإفراز الشركاء والصيد في جماعات، وتمييز الحركة الحية القصدية والهادفة من الحركة غير الحية. وتؤكد نتائج هذه الدراسات أن للرئيسات فكرا تأليفيا، أي أننا بصدد بنيات حملية وليس غرائز بالمعنى المتعارف عليه سابقا. فسلوك أي فرد من أفراد الرئيسات كأن يأخذ أداة معينة لاستعمالها وسيلة للوصول إلى هدف معين، يعتبر بنيات حملية مدمجة في بعضها، أي مبنية على دالات تأخذ موضوعات (أي تصورات).

المصدر الثاني: الذي عزز نتائج المصدر الأول، هو دراسة الحياة الفكرية والبنيات التصورية عند الرضع من البشر. فمجموع التصورات التي تراكمت من البحث في علم الرئيسيات بدأت تتراكم خلال العقدين الأخيرين لدراسة التطور التصوري لدى الرضع،

ولذلك مكنت التقنيات المتطورة في إجراء اختبارات غير المباشرة على الرضيع، واستنتاج الكثير من النتائج المتعلقة بالحياة التصورية الفطرية للرضيع قبل أن يلج الطفل مرحلة إنتاج اللغة خلال سنته الأولى. ولذلك مكنت أدوات تصوير الدماغ المتطورة من دراسة ما يجري في ذهن الرضيع وهو يشتغل. وتبين أن التصورات الجوهرية التي تملكها الرئيسات موجودة لدى الكائن البشري[20]. فالرضيع في أسابيعه الأولى، له القدرة على التمييز بين الكائن الحي وغير الحي، والحركة المقصودة من الحركة غير المقصودة. وله بكيفية متدرجة، القدرة على استنتاج مقاصد الآخرين وما يدور في أذهانهم. إننا نولد ونحن مزودون بمكونات هذه القدرة العامة ومن أبرز مكوناتها ما يسمى بمستشعر الحيوية المتعدد الحواس. وترتبط هذه القدرة، منذ وقت مبكر، بمكون رديف هو مستشعر نظر العين. باستعمال الانتباه إلى نظر الآخرين، لمحاولة تأويل مقاصد الشخص وأفعاله. وهذان المكونان نشترك فيها مع الكائنات الحيوانية؛ فالحيوانات تنظر إلى وجوه بعضها، وإلى الجهة التي ينظر إليها الحيوان الآخر؛ لمحاولة استنتاج قصد الآخر، وبالتالي الحفاظ على بقائها.

3 .المعنى بين الدلالة المعرفية والبلاغة الكلاسيكية.

كانت مهمة علم البلاغة تقليديا تهدف إلى حل العلاقة المعقدة بين الدال والمدلول؛ بمعنى الرمز اللغوي والمرجع الذي يحيل إليه هذا الرمز في الحقيقة الخارج لغوية. وتوجد سمتان بارزتان في كل النظريات الدلالية ذات الصلة في القرن الماضي؛ وهي محاولة التفرقة بين المعنى الموجود داخل اللغة والمعنى الذي يربط اللغة بالعالم الخارجي. وهذه الفكرة وجدت لها عدة تحققات داخل البلاغة التقليدية عبر عقود طويلة، وكان المعنى يُرى في إطارها هكذا "داخل اللغة" و"خارج اللغة"، "حقيقي" و "مجازي"،" حرفي" و "قصدي". وقد نتج عن هذه النظريات مقاربات لغوية للمعنى مثلما نجد في علم الدلالة المشروط بالصدق التي تفترض وجود حقيقة موضوعية خارجية على أساسها يتم الحكم على التأويلات اللغوية بالصحة أو الخطأ[21]، وحسب هذا التصور اللغوي فالكلمة تأخذ معناها من خلال المرجع الذي تحيل عليه، ويتحدد معنى الجملة بمجموعة الشروط الخارجية التي تجعلها صادقة. وتعتبر هذه المقاربات الشكلية التي تستند في تعريف المعنى على نوع من التحديد المعجمي القاموسي، وليس على المعارف المستقاة من العالم في نظر كل من فيفان وميلاني "نموذجا معجميا dictionary model للمعنى اللغوي وليس نموذجا موسوعيا .encyclopaedic model وحسب هذه الرؤية يصبح المعنى اللغوي منقطع الصلة عن " المعرفة المستقاة من العالم [22] .World Knowledg

حاولت النظرية المعرفية تجاوز قصور النظرية الكلاسيكية التي كان من أهم مقولاتها التمييز بين (اللغة الحرفية واللغة المجازية)، وهي ثنائية تزعم أن اللغة اليومية ذات دلالة حرفية مجردة من الاستعارات.ونتيجة للمعارف التي تراكمت عن هذه المقاربات، كان التفكير في المعنى يتم من خلال اللغة، وبالتالي فالمعنى موجود في اللغة، ويعرف من خلال معاني الألفاظ، وكان التفكير الفلسفي عبر مساره التاريخي يميل إلى نوع من الربط الحدسي بين الفكر واللغة، ويرى أن الفكر مرتبط باللغة، وحتى يكون هناك فكر يجب أن تكون هناك لغة.

في مقابل هذه الرؤية الموضوعية للغة، وانطلاقا من الثمانينات، وبموازاة مع التطورات التي عرفتها العلوم المعرفية وتطور الوسائل التقنية الحديثة التي ترتبط بتصوير الدماغ البشري وهو ينجز أعمالا، توصلت الدراسات المعرفية إلى أن الفكر غير اللغة، وتمكنت من إثبات أن الفكر موجود بدون لغة، على نحو ما تؤكده كاترين فوكس من أن "مسألة علاقة الفكر باللغة، أو الفكر التصوري الذي يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة، التي تم العمل عليها من قبل الفلسفة، أصبحت موضوع التطورات الجديدة في العلوم المعرفية. وهناك إجماع نسبي بين العديد من الباحثين من مختلف التخصصات للنظر إلى اللغة بأنها ليست ضرورية للفكر؛ أي إمكانية وجود فكر بدون لغة"[23] وتضيف فوكس أن الفكر يظل مستقلا من حيث المبدأ، عن اللغة هو ما برهنه بعض علماء النفس العصبي في وقت لاحق .[24]"

حدود الربط بين الشكل والمعنى الذي وقفت عنده البلاغة الكلاسيكية تعتبره كاترين فوكس غير كاف، ويجب أن يضاف إليه مطلب إضافي يتعلق بالعمليات المعرفية التي تسعى إلى الربط بين المعاني والتصورات "إن أي نظرية أدبية تود أن تكون معرفية أو تحمل هذه الصفة عليها أن تتجاوز النظريات السابقة التقليدية التي تربط الأشكال بالمعاني، وتجعل هدف دراستها هو البحث في العلاقة بين المعاني والتصورات... وأنه إذا كانت هناك ألسنية تتركز حول العلاقة بين الأشكال والمعاني فإن اللسانيات المعرفية يجب أن تضيف إليها تأملا حول وضعية المعاني اللغوية من خلال علاقتها بالتصورات"[25]. وحسب لازار Lazard يجب أن نقيم صلات بين الخصائص اللغوية والأنشطة المعرفية للذهن البشري وكيفية إدراكه للعالم[26]. وكما يقول لانكاكر "بالنسبة لي من المسلم به أن المعنى هو ظاهرة معرفية، ويجب تحليله على هذا النحو"[27]. مجيبا في كتابه "النحو المعرفي" عن السؤال التالي: هل محل المعاني الذهن؟ بأن معاني التعابير اللغوية من منظور لساني معرفي: محلها أذهان المتكلمين الذين ينتجون ويفهمون الأقوال"[28]. ويتأكد هذا التصور من قبل باحثين آخرين وهما فيفيان إيفنس وميلاني غرين، اللذين يريان أن "المعنى يقوم على التصور أكثر من قيامه على المرجع الخارجي، وأن اللغة تشير إلى تصورات أكثر من إشارتها إلى حقيقة مادية، وأن صلة المعاني بالتصورات والأفكار أقوى من صلتها بالكلمات والأشياء[29] .

يدعم هذا التصور، أحد أعلام الدلالة المعرفية أمثال؛ مارك تورنر Mark Turner الذي يضع حدودا للمستوى الذي وقفت عنده البلاغة الكلاسيكية، وهو مستوى الربط بين الأشكال والمعاني، الذي تجاوزته الدراسات اللغوية المعرفية، يقول: "أحد المناطق التي تجاوزت فيها الدراسة المعرفية الحديثة الدراسة البلاغية الكلاسيكية هي دراسة اللغة. ومن الصحيح أن البلاغيين الكلاسيكيين قد توصلوا إلى فكرة اللغة بوصفها شبكة علاقات تجمع بين الشكل والمعنى، وقاموا بعمل مبهر في نطاق هذا المفهوم، ولكن البحث في سياق تلك الخطوط قد تطور بشكل سريع؛ وفقا لمناهج اللغويين المعرفيين الحداثيين"[30]. والمعنى حسب لانكاكر وكوفتيش "متجسد" وهو مشتق من التجربة البشرية المتجسدة، على غرار الفكرة المركزية للرؤية المعرفية للاستعارة، وهذا المعنى ينبثق بصفة تفاعلية في الخطاب استنادا إلى سياق تداولي فيزيائي لغوي، واجتماعي، وثقافي".[31]

يتبن من خلال هذه التصورات، أن المعنى يوجد في الذهن وليس في اللغة، حسب الدلالة المعرفية، وهي تصورات يخالف ما دأبت عليه وجهات النظر في إطار الرؤية الموضوعية Objectivist world-view التي ما تزال مهيمنة في الفلسفة والمنطق والدلالة الشكلية، والتي تحدد معنى جملة ما بمجموعة الشروط الخارجية التي تجعلها صادقة. " الدلالة المشروطة بالصدق "Truth conditioned semantics –، دون اعتبار للكيفية التي نتصور بها هذا العالم ذهنيا.

هكذا تشتغل النظرية الدلالية المعرفية في قضية المعنى بوصفها قضية ذهنية بالأساس، فالمعنى لا يوجد في الواقع، أو في علاقة اللغة بالواقع، إنه تمثيل ذهني أو واقعة نفسية "psychological reality ، ويمكن أن نجمل الموقف الذهني بالنسبة لنظرية الدلالة المعرفية على النحو التالي: "إن المعنى في اللغة الطبيعية بنينة معلومات مرمزة في الذهن البشري، أو هو تمثيل ذهني، ومن ثم فإن المعلومات التي تحملها اللغة مصوغة بالطريقة التي ينظم بها الذهن التجربة، ولا يمكن لهذه المعلومات المتجلية في تعابير البنية التصورية أن تحيل على العالم الواقعي، كما في نظريات أخرى، وإنما على عالم مسقط ناتج عن هذه البنية، ووليد التنظيم الذهني المذكور"[32] .

ترى النظرية المعرفية ان المعنى تحل لبنية تصورية: أي لطبيعة التمثيل الذهني وطريقة تنظيمه، وهذا ما يجعلها مقاربة مميزة للبحث في المعنى بتحديدها لوجهة نظر مغايرة، حدد إيفنس وميلاني مجال دراستها بكونه "حقل يهتم بالبحث في العلاقة بين التجربة، والنسق التصوري، والبنية الدلالية التي تشفرها اللغة"[33]؛ أي دراسة العلاقة بين الذهن واللغة والواقع، وعلى وجه الخصوص البحث في "طريقة تمثيل المعارف (البنية التصورية conceptual structure) وبناء المعنى (التصور conceptualisation) .

تبعا لهذه الافتراضات، فالمعنى في النظرية المعرفية، يساوي التصور الذهني، ويستدعي المعرفة الموسوعية في ذلك. والمعنى يفهم بمساعدة مفهوم آخر، وعندما لا يتوفر الذهن على التصورات الكافية، يلجأ إلى الاستعارة؛ فيستعين بالتصورات المدركة حسيا بواسطة الجسد والتجربة؛ أي تلك البنيات والصور التي لها طابع حسي مادي ويستعيرها لفهم تصورات مجردة، وبالتالي فالتصورات المجردة هي إسقاطات من مصدر (معنى مدرك) إلى هدف (معنى مجرد). وما يحدث من علاقات مجازية واستعارية يجد تفسيره في هذا الإسقاط المعرفي الذي فسرته البلاغة الكلاسيكية بالخروج أو النقل أو الادعاء اللغوي. وبالتالي تعد الدلالة المعرفية Semantics Cognitive إحدى النظريات المنبثقة عن العلوم المعرفية. التي يتخصص المعنى وفق منظورها باعتباره "تمثيلات ذهنية مبنية في صورة تنظيم معرفي هو البنية التصورية. والبنية التصورية ليست جزءا من اللغة في حد ذاتها، وإنما هي جزء من الفكر. إنها المحل الذي يتم فيه فهم الأقوال اللغوية في سياقاتها، بما في ذلك الاعتبارات التداولية والمعرفة الموسوعية، إنها البنية المعرفية التي ينبني عليها التفكير والتخطيط. فيعتبر هذا المستوى المفترض للبنية التصورية المقابل النظري لما يسميه الحس المشترك «معنى»"[34] .

هذه باختصار أهم المبادئ والأطروحات الموجهة لدراسة المعنى من منظور معرفي، نعتقد أنها تفي بتوضيح مبسط لهذا المنظور وتمييزه بالقدر الذي يجعل من النظرية المعرفية مقاربة متميزة للمعنى، تدفع الباحثين إلى مزيد من البحث والدرس في هذا الحقل المعرفي المستجد.

الهوامش:

[1] Vyvyan Evans and Melanie Green, Cognitive linguistics an introduction, p 27-28.

[2] David, Herman Storytelling and the Sciences of Mind: Cognitive Narratology, Discursive Psychology, and Narratives in Face-to-Face Interaction NARRATIVE, Vol. 15, No. 3 (October 2007) Copyright 2007 by The Ohio State University , p 312.

[3] Catherine Fuchs, la linguistique cognitive existe-t-elle ? Quaderns de Filologia. Estudis linguistics. Vol. XIV (2009) , Paris, p 11-8.

[4] جورج لايكوف ومارك جونسن، الفلسفة في الجسد: الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي، ترجمة وتقديم عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 1، 2016، ص 68.

[5] Ryan, Marie-Laure (2015), Narratologie et sciences cognitives: une relation problématique, p 9.

[6] Herman, David. "Regrounding Narratology : The Study of Narratively Organized Systems forThinking." What is Narratology? Questions and Answers Regarding the Status of a Theory. Eds. Tom Kindt and Hans-Harald Mueller. Berlin: Walter de Gruyter, 2003. 303-32

[7] Lea Winerman, The mind's mirror, October 2005, Vol 36, No. 9, Print version, p 48

[8] Maxim I. Stamenov and Vittorio Gallese , Mirror Neurons and the Evolution of Brain and Language , John Benjamins Publishing Company Amsterdam/Philadelphia, © 2002 – John Benjamins B.V. usa, p259.

[9] Mirror Neurons and the Evolution of Brain and Language , p 207.

[10] Ryan, Marie-Laure (2015), Narratologie et sciences cognitives ,p 4.

[11] Dan Sperber, Deirdre Wilson Relevance : Communication and Cognition, 2nd Edition 1995 Blackwell Publishers, Oxford UK and Cambridge US, p47-48.

[12] Brent Strickland , Language Reflects "Core" Cognition: A New Theory About the Origin of Cross-Linguistic Regularities , Cognitive Science (2017) Science Society , The Normal Superior School (ENS)/French National Center for Scientific Research, p70-71.

[13] Banu Cangoz , Arif Altun ,Sinan ,OlkunComputer based screening dyscalculia: Cognitive and neuropsychological correlates , Article in Turkish Online Journal of Educational Technology · July 2013 ,p 34.

[14] Maxim I. Stamenov and Vittorio Gallese , Mirror Neurons and the Evolution of Brain and Language , p295.

[15] .2 Brent Strickland , Language Reflects "Core" Cognition , p7

[16] Mandler, Jean (1992) 'How to build a baby II. Conceptual primitives', Psychological Review, 99, 591.

[17] . Ibid, p 597

[18] جورج لايكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد، ص 10.

[19] .4 Brent Strickland , Language Reflects "Core" Cognition , p7

[20] جورج لايكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد، ص 38.

[21] an introduction, Edinburgh Vyvyan Evans and Melanie Green, Cognitive linguistics University Press,2006,p171.

[22] .1, la linguistique cognitive existe-t-elle ?,p 17 Catherine Fuchs

[23] 21.1Ibid, p

[24] .021 Ibid, p

[25] , la linguistique cognitive existe-t-elle ?, p 123. Catherine Fuch

[26] Lazard, G. (2004). "What are we typologists doing ?". In: Z. Frajzyngier et al. (eds.) (2004): .20p

[27] .120 Ibid, p

[28] cf. Ronald W. Langacker , Cognitive Grammar, P 27.

[29] an introduction, pp157-162. Vyvyan Evans and Melanie Green, Cognitive linguistics

[30] Mark Turner, The Cognitive Study of Art, Language, and Literature , Poetics Today 23:1 (Spring 2002). Copyright © 2022 by the Porter Institute for Poetics and Semiotics, p 10.

[31] Zoltan Kovecses , Metaphor: A Practical Introductionp, Oxford University Press, 2002, p18.

[32] غاليم محمد (إعداد وتنسيق)، دراسات في الدلالة العربية المقارنة، الرباط، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، ط1، 2015، ص20.

[33] .48 an introduction, p Vyvyan Evans and Melanie Green, Cognitive linguistics

[34] R. 2002, Foundations of Language, Brain, Meaning, Grammar, Evolution, Oxford , Jackendoff University Press, p 123-124.